الجامعة اللبنانية

كلية الحقوق والعلوم السياسيّة والإداريّة

الفرع الثاني

الفكر السياسي في العصور الحديثة

الدكتورة منى الباشا

السنة الثانية علوم سياسيّة

(الفصل الثالث)

٢٠١٣-٢٠١٤

الفصل الأوّل
الليبرالية والاشتراكية في الفكر السيا سي

—

I . **القسم الأول : التيّار الليبرالي (** Libéralisme / Liberlism):

الليبرالية هي تيار فلسفي نشأ في أوروبا في عصر الأنوار، كردٍّ على مفهومي الحق الإلهي والسلطة المطلقة، بهدف دحض المقاربات النظريّة المبررة لسلطة الملك المستمدّة من الله.
أبرز منطلقات تيار الليبراليّة: تفوّق الحريّة الفرديّة والمسؤوليّة الشخصيّة على سلطة الحاكم، وتمتّع الإنسان بحقوق أساسيّة مستمدّة من القانون الطبيعي. وهي حقوق لا يحّق لأحد المسّ فيها أو انتهاكها.

تنادي الليبراليّة بتحرّر الفرد من النظم الإجتماعيّة، ومن الخضوع للنظام السياسي. وتتجسّد حريّته من خلال الحدّ من سلطة الحاكم عليه، وتقليص واجباته تجاه النظام الإجتماعي ومنحه حريّة الإختيار. وتُعتبر حريّة الفرد الركيزة الفلسفية التي قام عليها التيار الليبرالي، إذ شكّلت إنطلاقاً ومرتكزاً لكل الحريات الفردية والعامة. وتنادي الليبراليّة بمجتمع قائم على حريّة التعبير وتبادل الآراء والتعدديّة.. فحريّة الفرد ورفاهيته يسمحان بقيام مجتمع يقدّس القيم الإنسانيّة الكبرى.
إذاً، إنّ الليبراليّة تقوم على مبدأ أخلاقي يرفض التبعيّة والإلتحاق بالشخص. ومن هنا نشأت فلسفة تنظيم الحياة في إطار مجتمع يُسمح فيه لكلّ فرد بالتمتّع بحريّته كاملة، في كل المجالات الاجتماعية والسياسية وحتى الإقتصادية، في هذا السياق يتعزز التكامل بين المجالين السياسي والإقتصادي في الفكر الليبرالي.

تُطبّق الليبراليّة في المجالين السياسي والإقتصادي. ففي المجال الإقتصادي يُطبّق المجتمع الأفكار الليبراليّة القائمة على المبادرة الفرديّة والمنافسة الحرّة واقتصاد السوق. وفي المجال السياسي يخضع المجتمع لحكم القانون في ظلّ وجود مؤسسات وتوازن في السلطة (النظام برلماني).
فالدولة الليبراليّة هي دولة قانون تحترم الفرد وتكون الضامنة لحرياته ولحقوقه.

١) . نشأة الليبراليّة:

يُرجع المفكرون السياسيون نشأة الفكر الليبرالي الى المدن اليونانيّة، حيث نادت المدرسة الرواقيّة وأرسطو وديوجان بالقانون الطبيعي وحريّة الإنسان. وقد تبلور الفكر الليبرالي بين منتصف القرن السابع عشر ومنتصف القرن الثامن عشر، بفضل اندفاع مفكّري عصر الأنوار الذين جهدوا لدحض نظريّة الحكم المطلق والحق الإلهي. وفي فرنسا ظهر مصطلح الليبراليّة في كتابات مان دو بيران (Maine De Biran) عام ١٨١٨ ودخل معجم اللغة الفرنسيّة عام ١٨٢٣ (Dictionnaire universel de la langue française). أمّا كلمة ليبراليّة فقد صاغها الحزب الليبرالي في كورتيس(Cortes) في إسبانيا عام (1812). ومن أشهر منظّري الليبراليّة الفيلسوف جون لوك وآدم سميث.

٢) . تعريف الليبراليّة :

يستمّد تعريف الليبراليّة عناصره من الأصول اللغويّة للمصطلح. إيتمولوجياً تعود كلمة ليبراليّة الى اليونانيّة "Libéralis " وتعني " كريم، ونبيل، وما يليق بشخص حرّ "[١].

إذاً، تعني الليبرالية، لغوياً، الحرية. وتعني فلسفياً أن يتمتّع الانسان بحريته كاملة في ظلّ نظام سياسي يحمي هذه الحرية. ويضع هذا النظام كلّ إمكانياته في خدمة الانسان المتفوّق على الدولة بموجب الحقوق التي يتمتّع بها.

٣ . المبادىء الفلسفيّة لتيار الليبراليّة:

تمتدّ جذور الفلسفة الليبراليّة عميقاً في تاريخ البشريّة. وتعود أصولها الى الفكر اليوناني، حيث قام بعض الفلاسفة مثال أرسطو وأبيقور وغيرهم بالمناداة بالحقوق الطبيعيّة للفرد. غير أن صعود نجم المسيحيّة وانتشارها في كلّ أوروبا، أسقطا الفلسفة اليونانيّة في غياهب النسيان. فقد طرح الفلاسفة المسيحيون نظريات جديدة ربطوا فيها الحكم الزمني بالإرادة الإلهيّة، فأصبح الملك يستمد سلطته من الله. وقد منح مفهوم الحقّ الإلهي الملك سلطة مطلقة أوجبت على الفرد الخضوع التام له.

---

[1] Du latin Libéralis, généreux, noble digne d'une personne libre.
Liberalism from Latin Libéralis which mean freedom. Liber which mean, "free". Libéral could have positive or negative attributes in refering to some on's generosity or indiscretion.

فأدى هذا التحول الفكري المتمثّل بالمغالاة في تفسير ارتباط الزمني بالديني في غرق أوروبا في القرون الوسطى السوداء، والتخلّي عن الفلسفة الإغريقية.

وقد استدعى الاجحاف الذي لحق بالأفراد والتعسّف الذي مورس بحقهم إلى تبلور نظريات جديدة طالبت بفصل الدين عن الدولة، وبتحديد مهام الإكليروس. وبلغت الحركات الإصلاحيّة أوجها في القرن السادس عشر، حيث ساهمت الإنتقادات التي وجّهتها هذه الحركات الى الكنيسة بإعادة إحياء التراث اليوناني. فاستعاد الاصلاحيون الفلسفة الإغريقية، لاسيّما تلك التي طرحت الفرديّة كبديل لمفهوم الجماعة السائد في ذلك الوقت. وأصبحت المناداة بالحقوق الطبيعيّة في صلب الإصلاحات التي طالبت بها البروتستانتيّة. ما هو الدور الذي لعبته البروتستانتية في وضع الأسس الفلسفيّة الليبراليّة؟ وما هو دور الفيزيائيين الفرنسيين؟ وما هي المرتكزات الفلسفيّة لهذا التيار؟ وما هي علاقة الليبراليّة بالقانون الطبيعي؟

3-1 المصادر الإيديولوجيّة لليبراليّة:

تعتبر الليبراليّة تاريخياً أول ايديولوجيّة سياسيّة تكشف عن الحداثة. أي بمعنى آخر، إن الليبرالية هي الوحيدة التي ادّعت نشأة المجتمع بفعل نيّة أفراده ورغبتهم وإرادتهم الذاتيّة. وهذه مسألة جوهريّة، إذ ستشدّد، لاحقاً، كل الكتابات الليبراليّة على مفهوم الفرد وليس على مفهوم الحريّة. فالفرد موجود في جوهر الليبرالية المجرّدة التي رفعت الإنسان كقيمة سامية، وصاغت له مكانة مركزيّة في قلب الحياة البشرية وفي تاريخ المجتمعات، فحلّ الفرد فيهما منتزعاً من القيم الدينيّة أو الفلسفيّة المكانة التي حصلت عليها هذه المجتمعات في القرون الوسطى.

أ . دور البروتستانت:

يؤكّد معظم الفلاسفة الباحثين في نشأة الليبراليّة أن جذور هذه الإيديولوجيّة تمتدّ في البروتستانتيّة، ويعتبرون أنها شكّلت العامل الأساسي لظهور التيّار الليبراليّ. وقد أبرز "ماكس ويبر" (Max Weber 1864 – 1920) في كتابه "الاخلاق البروتستانتيّة وروح الرأسماليّة" (L'Éthique Protestante et l'Esprit du Capitalisme)
دور هذا المذهب الديني في بلورة الليبراليّة. فانطلق في مقاربته هذه من تحليل القيم الكلفينيّة التي تبحث في طرق تعويض علاقة الفرد المتعثّرة مع الله. ويتجلّى هذا التعثّر برفض الكنسيّة كنظام وكسلطة، وإلغاء المقدسات والأسرار، واستبداله بنشاط إنتاجي وتحقيق نجاح ماليّ فردي، واعتبار هذا المجهود بمثابة رهن حاليّ عن قدر محتوم في المستقبل. وتحوّل التقشّف
(ascétique) نمط حياة للتكفير عن الخطايا والذنوب.

ومع الوقت، صار نمط الحياة هذا إلى استراتيجيّة اقتصاديّة قامت على الإمتناع عن التمتّع بالأموال التي يجنيها الفرد، ما أدّى الى تكديس رؤوس الأموال واستثمارها في نشاطات إقتصاديّة وتحديداً صناعيّة. وأهمّ ما في هذه الأعمال، أنها تخضع لإرادة الإنسان، فهو ينظّمها كيفما يشاء، بعيداً عن إرادة الله أو عن أي تدّخل منه.

هذا وقد لعبت بريطانيا من خلال فلسفتها البرغماتيّة، والمذهب الأنغليكاني الذي اعتنقته، وممارساتها السياسة البرلمانيّة، دوراً رئيسياً في التحضير للثورة الصناعيّة الأولى. فشكلّت منذ أوائل القرن الثامن عشر مهد الإيديولوجيّة الليبراليّة. وقد عبّرت كتابات جون لوك (١٦٣٢–1704) عن التحوّل الفكري في تلك المرحلة وتداعياته على مقاربة نشأة المجتمعات البشريّة، إذ أضحت إرادة الفرد الدافع الأساسي لهذه النشأة. وهذه نقطة سيتمّ تناولها بإسهاب لاحقاً خلال عرض نظريّة العقد الإجتماعي.

ب . <u>الفزيوقراطيون الفرنسيون:</u>

لم يكن المفكّرون الفرنسيّون بعيدين عن التحولات الفكريّة التي كانت تعيشها بريطانيا. فقد أسّست مجموعة منهم مثال:

(François Quesnay 1694- 1774 et Dupont de Nemours 1739- 1817)

تياراً فكرياً، قاربوا فيه الإنسان مقاربة ماديّة وفرديّة، وحدّدوا سعادته بحجم ثروته ومصدر سلطانه (source de puissance). واعتبروا أن الأرض هي الخالقة الوحيدة للثروات، ما يمنح، بحسب رأيهم، أهميّة كبرى لكلٍ من الملكيّة الفرديّة وحريّة تداول ثروات نتاج الأرض. فبالنسبة إلى الفزيوقراطيين، ترتكز سعادة الأفراد على تمتّعهم مشتركين بالحريّة الكاملة للبحث عن مصالحهم الشخصيّة. وهذا السلوك هو الأكثر انسجاماً مع نظام الطبيعة ومبدأ التناغم الإجتماعي الكوني. بنى الفزيوقراطيون نظريتهم حول نشأة المجتمع ودور الفرد فيه على مقاربة ماديّة للكون. واعتبروا أن حركته منتظمة بفعل يد قوى الطبيعة الخفيّة وبدون تدخّل من الله. وكما تسيّر الطبيعة أمورها بحريّة، فالإنسان بصفته جزءاً من هذه الطبيعة، هو أيضاً حرّ.

3-2 <u>المرتكزات الفلسفيّة لتيار القانون الطبيعي:</u>

يُعتبر القانون الطبيعي المصدر الفلسفي الأساسي للفكر الليبرالي. وينادي القانون الطبيعي باستقلاليّة الفرد وتمتّعه بحقوق أساسيّة لا يجوز سلبها منه، أو حرمانه منها، أو التنازل عنها، ولا حتى تفويضها لأيّ كان. فهو بحسب القانون الطبيعي سيّد نفسه. والحقوق التي يتمتّع بها مرتبطة

بطبيعته البشريّة ومتلاصقة معها وناتجة عن وجوده. وتتضمّن هذه الحقوق الحريّة والملكيّة الفرديّة التي انبثق عنها مفهوم الفرديّة. فأصبحت هذه العناصر المكوّنة للحقوق الطبيعيّة الركائز الفلسفيّة التي يقوم عليها الفكر الليبرالي.

وتُظهر أدبيات الليبراليّة أن الفكر الليبرالي يقوم أيضاً على قيم إنسانيّة نابعة من تقديس الفرد وحريّته. ويمكن تلخيص هذه القيم بقاعدة (précepte) واحدة على كلّ ليبرالي التقيّد بها: "لن تغتصب الحقوق الطبيعة لأي كائن بشري". فالليبراليّة تترك الحريّة المطلقة لكل فرد لتحديد أهدافه واختيار الوسائل لتحقيقها، واعتناق الأفكار التي تعجبه، وذلك في ظل تطبيق مبدأ المساواة بين كل الناس، فهم مثله أحرار يفعلون ما يريدون.

وترى الليبرالية أنه في موازاة الحقوق واجبات تشكّل لبّ الأخلاق الشخصيّة. وتحظّر القيم الليبراليّة استعمال العنف والقتل والسرقة والإستعباد بكل أشكاله والدكتاتوريّة تجاه الإنسان. فهي تدعو الى التسامح مع افكار الآخر ومعتقداته وتصرفاته. هذا وتعلن الليبراليّة أن الأخلاق والديانات خارج اختصاصها ومجالها، وتدعو الى منع استخدام القمع خدمة للدين.

أ . <u>الفرديّة (Individualisme):</u>

تشكّل الفرديّة أحد العناصر الفلسفيّة الثلاثة التي يرتكز عليها الفكر الليبرالي. وقد تعددت مقاربات الليبراليّة لدور الفرد في المجتمع، ففي حين مال آدم سميث وجريمي بانتم "
(Adam Smith 1723-1790)
Et Jérémie Bentham 1748 – 1832).

الى تقديس المجتمع من خلال دور الفرد الذي يُعتبر العنصر الوحيد النشيط ، سعى بنجامين كونستان وماكس سترنر "
(Benjamin Constant 1767- 1830 Et Max Stirner 1805 – 1856).
الى تقديس الفرد ومنحه دوراً متفوقاً على المجتمع، عبر حمايته من محاولات استعباده والتحكّم به. ويمكن تفسير هذا الإختلاف في مقاربة مفهوم الفرديّة من خلال قراءة المتغيرات كالنموّ الإقتصادي وفلسفة النظام ومكانة الدولة. فالفرد في الليبراليّة الإنكليزيّة هو رجل التجارة والثورة الصناعيّة، وهو المستثمر "entrepreneur" النشيط وجامع الثروات المكونة من الأملاك بشكل أساسي، ومصدر الديناميكيّة الإجتماعيّة.
في حين أن الإنسان الليبرالي بالنسبة لكونستان وسترنر هو شخص مثقّف منتج للأفكار في مجتمع ما قبل الصناعي. هذا الشخص هو غنيّ بذاته مثال الأرض المانحة للثروات... فالإختلاف بين

هذين التيارين يكمن في نظرة الأول الى الإنسان كرجل أعمال أمّا الثاني فيرى فيه الاستقراطي مالك الأراضي والمأخوذ بعصر الأنوار.

ويعتبر معظم الباحثين السياسين أن " سترنر " (Stirner) هو فيلسوف الفرديّة، إذ ربطها بالحريّة واضعاً في المواجهة مفهومين: الحرية الحقيقية والحرية المجرّدة. ويقصد "سترنر" بالحريّة الحقيقيّة التحقيق السريع والملموس لفرادة الإنسان (particularité)، في حين أنه يعتبر حريّة الفرد المجرّدة حريّة مشتركة وجامعة لكل الناس. وهذه الحريّة ليست سوى البحث الدائم في المستقبل عمّا يحرّر الفرد. وفي معرض انتقاده للماركسيين استعاد "سترنر" (Stirner) في مقاربته لمفهوم الفرديّة "الأنا" المتفوّق على الجماعة. فكل إنسان هو فريد، هو إله يجب تحريره من قيود المجتمع.

ب . الحريّة: (Liberté).

عرّفت شرعة حقوق الإنسان والمواطن في مادتها الرابعة (1789) الحريّة "بالقدرة على القيام بكل ما لا يتسبّب بضرر للآخر". وهكذا، فإن مزاولة كل إنسان لحقوقه الطبيعية "ليس لها حدود إلاّ تلك التي تؤمّن لأعضاء المجتمع الآخرين إمكانيّة التمتّع بالحقوق نفسها". إذاً حريّة الإنسان هي مطلقة وليست محصورة بأشخاص معينين إنمّا يتمتّع بها كل الناس. وتشمل هذه الحريّة، بحسب "كونستان" (Benjamin Constant) : "الحريّة في الدين، والفلسفة، والأدب، والصناعة، والسياسة". ويرى أن الحريّة أيضاً هي "إنتصار الفرديّة على السلطة الراغبة في التسلّط على الجموع وإخضاع الأقليّة للأكثريّة والحكم بالقوّة "[٢].

ويشير هذا التعريف الى أهميّة الفرديّة أكثر منه إلى الحريّة بمعناها المجرد. إذ انطلق "كونستان" في مقاربته من إعتباره الفرديّة في جوهر الليبراليّة وليس الحريّة، وذلك لأن تفوّق الفرد ووضعه في مرتبة أعلى من كل القيم، يحتّمان إطلاق حريته. ولتبرير رأيه سعى من خلال خطاب ألقاه في فرنسا عام (1819) الى مقارنة مفهوم الحريّة عند القدماء ومفهومها الحديث لتوضيح استقلاليّة الفرد المقدسّة، معلناً "أن هدف القدماء كان مشاركة كل أعضاء المجتمع بالسلطة الإجتماعيّة، وهذا ما كانوا يسمونه حريّة. أمّا بالنسبة للحديثين فتختصر الحريّة بتمتّع الفرد الخاص، أي أن تقدم له المؤسسات السياسية الضمانات كي يستمتع (jouir) بمشاركته في الحياة السياسيّة.

[2] Jean- Luc Chabot, *Histoire de la pensée politique*, P U G, 2ème édition, 2006, p. 70.

و épanouissement تحقيق ذاته في الدولة– المدنيّة أو في ظل الحكم الروماني يعود الى مشاركته في السلطة السياسيّة والتضحيات المتأتية من جرّاء مشاركته المباشرة.

واليوم تعجز المجتمعات التمثيليّة الحديثة عن منح أفرادها هذا الإستمتاع عبر الممارسة الإنتخابيّة، إذ يقتصر استمتاعهم على المستوى الشخصي ولا يتخطاه إلى المستوى السياسي، فقد حلّت النشاطات الخاصة مكان النشاطات السياسيّة"[٣]. هذا وقد حذّر الفيلسوف "كونستان" من أن الفراغ الذي تركه الفرد في المجال السياسي قد يؤدّي الى وصول متسلّط الى السلطة أو تحكم مجموعة ما في الحكم مُوجدة أوليغارشية حاكمة، وهذا ما حصل في فرنسا في تاريخها اللاحق.

ج . <u>الملكيّة الفرديّة:</u>

يعدّد " روثبار " (M. Rothbard) المبادىء الاقتصادية في الليبراليّة:

١) حق الإنسان المطلق بملكيّة جدّه.
٢) حق الإنسان المطلق بامتلاك الموارد الماديّة التي اكتشفها وحوّلها، وبإدارتها.
٣) حق الإنسان في استبدال الملكيّته، أو منحه ملكيّة أي حق من الحقوق لمن هو مؤهّل لتلقيها.

ونستخلص من خلال هذه المبادىء أن أهميّة الملكية الفرديّة ناتجة عن ارتباطها بالإنسان الذي هو أسمى ما في الوجود، وكل ما يمتدّ شخصه إليه يصبح خاضعاً له.

كذلك فإن حق الملكيّة هو حق كل فرد بالتصرّف كما يشاء بثمرة نشاطه وثرواته التي صنعها أو اكتسبها بوسائل مشروعة. ويدخل ضمن ملكيته أيضاً الأشياء التي ليست ملكاً لأحد كالمساحة التي يشغلها أو الهواء الذي يتنشّقه. وهذه الحقوق المستمدّة من القانون الطبيعي لا تخضع لأيّة قوانين وضعيّة. فالشخصيّة والحريّة والملكيّة هي حقوق موجودة قبل أي تشريع إنساني وأسمى منه. وقد تناول جون لوك في كتابه "الحكومة المدنيّة" الملكيّة الفرديّة وشرحها بإسهاب، ومنح الفرد الحق المطلق بالإحتفاظ بملكيّته ثمرة أتعابه ومجهوده. وكما هو معلوم فإن نظريّة الحقوق الطبيعيّة شكّلت المرجع الفلسفي الذي قام عليه الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والمواطن، ومنحت الثورتين الأميركيّة والفرنسيّة جزءاً من تبريريهما.

[3] Ibid., p.

٤ . مظاهر الليبراليّة:

تُطبّق الليبراليّة في المجالات الإجتماعيّة والسياسيّة والإقتصاديّة، حيث تتمظهر في سلوك معيّن فرضته الأفكار والمبادىء الفلسفيّة التي قامت عليها هذه الفلسفة.

أ . المظهر الإجتماعي : (Aspect social):

تفرض الليبراليّة على المجتمع احترام الحقوق الطبيعيّة والحدّ من صلاحيات الدولة. وفي الواقع فإن هذه الافكار لم تعد مطبقة، فقد سمحت ضرورات الأمر الواقع، وتحديداً بعد الحرب العالميّة الثانية، بتدّخل الدولة في قضايا عدّة تهمّ المجتمع. وتزامن هذا التحوّل مع تطوّر في مفهوم المصلحة العامة الذي انعكس تطوراً في مقاربة الفكر الليبرالي لمفهوم دور الدولة، وأصبحت الدولة الراعية اليوم مثالاً للدولة الليبراليّة.

ينطلق المفكرون الليبراليون في مقاربتهم للمجتمع الليبرالي من مسلّمة تقول بأن الإنسان حيوان اجتماعي، يحترم مشاعر غيره، وهو حريص على راحة الآخر، ويعرف أن التعاون معه هو الوسيلة الوحيدة لضمان استمراريّته وتأمين رغباته. ويعي الإنسان الليبرالي أن الناس ليسوا متشابهين بل مختلفين، وهو يعرف أيضاً أن عليه التعاون مع الآخر لإيجاد حلول تكون في مصلحة المجتمع. فالإنسان الليبرالي يتخطّى الإختلاف ويعتبره غنى... والمجتمع الليبرالي المثالي ليس مجموعة أفراد غرباء وأنانيين مرصوفين (personnes juxtaposées) أو عدّة مجموعات مستقلّة عن بعضها، بل هو تداخل لمجموعات متعدّدة يمكن لكل فرد من أفرادها تحقيق أهدافه من خلالها بالتعاون مع أشخاص يشاطرونه مبادئه المثاليّة. فالمجتمع في الفكر الليبرالي قائم على التعاون الحرّ ضمن احترام الفردية.

ب . المظهر السياسي: (Aspect politique):

يعتبر الفكر الليبرالي الكلاسيكي أن قيام الدولة هو حاجة لفرض احترام عدم استخدام العنف من قبل الأفراد ضدّ بعضهم البعض. لذلك أوكل الى الدولة مهمّة حماية الأفراد عبر تمتّعها "بحصريّة استخدام العنف الشرعي" (Max weber). وبالفعل فإن الدولة– الدركيّ التي نشأت في بداية ترسيخ أسس الدولة الليبراليّة الحديثة حصرت مهامها بالأمن الداخلي والخارجي، فكانت ممثّلة بالبوليس والقضاء والدفاع الوطني والتمثيل الدبلوماسي. ولضمان عدم إستغلال الدولة لسلطتها وصلاحياتها والتحكّم بالناس، فرض الفكر الليبرالي على الدولة اعتماد مبدأ الفصل بين السلطات الثلاث: التشريعيّة والتنفيذيّة والقضائيّة. كما فرض على الدولة تركيز الحكم على مبادىء الديموقراطيّة واحترام حريّة الرأي وحريّة الصحافة، وجعل القانون مرجع الدولة الوحيد. فالدولة الليبراليّة هي دولة القانون. وإنطلاقاً من هذه المسلّمات، لا تميّز الدولة الليبراليّة بين أقليّة وأكثريّة،

بما فيها تلك المنبثقة من الإنتخابات التشريعيّة، فكل المواطنين في الدولة متساوون أمام القانون، يتمتّعون بالحقوق نفسها وعليهم الواجبات نفسها.

ج . المظهر الإقتصادي: (Aspect économique):

تعتبر الليبراليّة الإقتصاديّة تطبيقاً للفلسفة الليبراليّة. وقد عرف القطاع الإقتصادي تحولاً في المفاهيم. فتطوّر الاقتصاد من اقتصاد كلاسيكي الى اقتصاد حديث، وذلك انسجاماً مع النيوليبراليّة وتحوّل الدولة الى دولة راعية. وقد نشأت عدّة مدارس ليبرالية حديثة كالأميركيّة والفرنسيّة والنمساويّة، سعت كل منها الى مقاربة الإقتصاد الليبرالي انطلاقاً من واقعها الإجتماعي والسياسي.

بشكل عام، يمكن القول أن الإقتصاد الليبرالي مرّ بعدة مراحل بدءاً بالإقتصاد الكلاسيكي مع آدم سميث الذي اعتبر أن تدخّل الدولة في النشاط الإقتصادي هو محدود ويتمّ عبر واجبات ثلاثة: حماية المجتمع من التعديات الخارجيّة، وحماية الأفراد من ظلم وتحكّم بعضهم ببعضهم الآخر، وإقامة مؤسسات عامة تتحمّل مصاريف وأعباء تفوق قدرة الأفراد.

وقد ساهم تطوّر الفكر الليبرالي الإقتصادي في توسيع مهام الدولة وصلاحياتها ومنحها حق التدّخل في شؤون الناس الإجتماعيّة والإقتصاديّة، وسنّ قوانين ومراقبة الأسعار، وتنظيم العمل، والعلاقة بين العامل وربّ العمل، ووضع التشريعات لتصحيح الخلل في الأسواق الماليّة، وحسن إدارة الأملاك العامة، وخلق وظائف، ووضع السياسات الماليّة، وتوقيع البروتوكولات التجاريّة لفتح الأسواق أمام بضائع البلد وتحديد آليّة التبادل التجاري.

د . المظهر البيئي:

ترافقت ولادة الليبراليّة مع قيام الثورة الصناعيّة وظهور النماذج الإقتصاديّة التي صاغت النشاط الإقتصادي وهيكلته، فأدّت الى ارتفاع في الإنتاجيّة وتطوّر في الصناعة، على حساب البيئة. وقد أدّى تقدّم الصناعة وتطوّر التكنولوجيا الى وصول الصناعة الى مرحلة ما بعد الحداثة. وساهم هذا التقدّم في ازدهار المجتمعات الغربيّة وتأمين الرفاهيّة للمواطنين من جهة وتناقص في الموارد الطبيعيّة وارتفاع نسبة التلوّث من جهة أخرى. لذلك، فإن الدولة الليبراليّة تحاول اليوم إدماج آثار النمو السكاني والإقتصادي مع البيئة والسعي لاستبدال الطاقة النفطيّة بطاقة بديلة تراعي الطبيعة وتحافظ على التوازن البيئي. وتفرض على الشركات والمصانع الكبرى تخصيص مبلغ من أرباحها لأهداف بيئيّة (كتكرير المياه قبل رميها في البحر، واستعمال الفلاتر لتنقية الهواء من الدخان، وزرع أشجار بدل التي تُقطع وخلق مساحات خضراء...).

II . القسم الثاني: النظريّة الإشتراكيّة.

اعتمدت الإشتراكيّة تاريخياً للتعبير عن مبدأ "ضرورة تحقيق المساواة والعدالة الإجتماعيّة، في العلاقة بين الأغنياء والفقراء، أي بين من يمتلكون وسائل الإنتاج وبين من لا يمتلكونها".
وقد ظهر هذا التعبير منذ العصور الغابرة في الصين القديمة. كما أن الفلاسفة الإغريق تعرّضوا لهذا التعبير وبالأخصّ أفلاطون، حيث دعا في كتاباته الى إلغاء المُلكية والنظام الأسري، ونادى بشيوع المرأة.

١) . الأصول التاريخيّة للإشتراكيّة

أ . المقاربات المثاليّة للمجتمع:

تنطلق الإشتراكيّة في مقاربتها للمجتمع من نظرة مثاليّة تسعى لإسقاطها على الواقع من خلال اعتماد عدّة خطوات.. وتمتدّ جذور هذه الفلسفة بعيداً في التاريخ، وصولاً الى أفلاطون الذي وضع نموذجاً لمدينة مثاليّة تسودها المساواة والعدالة، ويحكم فيها رجل السلطة كأب أكثر منه كحاكم. ويتمتّع الناس في هذه المدينة بالمساواة التامة على كل المستويات: فخيرات الأرض هي مشتركة، ونتاج العمل مشترك، وحتى النساء مشتركات.

وفي ظلّ الظلم الذي ساد أوروبا في القرون الوسطى، استعاد بعض المفكرين المسيحيين جمهوريّة أفلاطون المثاليّة، وأكسبوها صفات تنسجم مع الديانة المسيحيّة، ووضعوا تصوّراً لمجتمع مغاير للواقع، أي كما ينبغي أن يكون وليس كما هو واقعياً. ومن أبرز المنظرين في تلك الحقبة "توماس مور"(Thomas More) الذي يُعتبر مُلهم الإشتراكيّة المثاليّة. ولاحقاً، وضع مفكرون آخرون مؤلفات جاءت أكثر عمليّة من سابقتها، إذ قامت باستعراض الخطوات الواجب اعتمادها لتطوير المجتمع والسير به بإتجاه الشيوعيّة. فالشيوعيّة، كما هو معروف، تُعتبر المرحلة الأخيرة والأسمى لتطوّر المجتمع وإرتقائه من مرحلة الى أخرى. وسنقوم باستعراض أبرز المفكرين المؤّسسين للفكر الشيوعي.

أولاً: توماس مور (Thoma More 1478 – 1535):

يُعتبر كتاب "الخيال" أو "الوهم" أو " الاوتوبيا" (L'UTOPIE) من أهمّ المؤلفات الخياليّة التي وضعت تصوراً حول الإشتراكيّة المثاليّة. مؤلّف القصّة هو توماس مور (١٥٣٥ – ١٤٧٨). وقد وضعها المؤلف عام ١٥١٦ على خلفيّة الحاجة الى وضع سياسة قائمة على التسامح والتأني في معالجة الأمور. فرفعه كتابه هذا الى مصاف العالميّة، وأكسبه شهرة واسعة. وتمكّن "مور" من بناء مكانة له في المجتمع البريطاني وأصبح سفيراً لبلاده، ومستشاراً للملك هنري الثامن. وفي ظلّ الصراع الانغليكاني الكاثوليكي، وقف الكاتب إلى جانب الكنيسة ورفض التخلّي عن إيمانه غداة الإنشقاق الذي حصل عام ١٥٣٣ بين الكنيسة وملك بريطانيا. فدفع ثمن التزامه الديني وأُعدم عام ١٥٣٥.

ويعتبر الباحثون كتاب "الوهم" أو " اوتوبيا" (UTOPIE) مؤلّفاً نموذجياً للقرن السادس عشر، إن من حيث حجمه، أو من حيث الموضوع الذي يتناوله. يعالج الكتاب رحلة الى بلاد خياليّة هي جزيرة "اوتوبيا" (وكلمة " UTOPIE " باللغة الفرنسيّة تعني "لا مكان" nul part, no were). ويُعتبر هذا الأسلوب الأدبي أسلوباً جديداً في المعالجة، حيث تُظهر مطالعة الكتاب مدى تأثّر "مور" بكتابات أفلاطون، لا سيّما خلال وصفه للمدينة المثاليّة. هدف الكاتب من خلال قصته تلك، الى قلب المفاهيم الدينيّة المتزمّتة السائدة في عصره.

وفي كتابه هذا، سعى "توماس مور" الى تفادي العدالة المدنيّة والإنغماس في عالم خيالي قدم من خلاله عرضاً ثورياً مناقضاً لمؤسسات المجتمع الإنكليزي. "فالأوتوبيا" تعرض مشروعاً لجمهوريّة تسودها المساواة، على نقيض الملكيّة البريطانيّة ونظامها الإقطاعي. هذا النظام القائم على عدم المساواة بين الأغنياء والفقراء والبؤس الإجتماعي، والذي يشكّل أرضاً خصبة للعنف والجريمة. ففي بلاد "الأوتوبيا" يعيش الناس بسعادة في ظلّ نظام مثالي تسوده العدالة الإجتماعيّة والسياسيّة.

فقد أُزيلت من هذه الجزيرة كل مصادر الخلافات وعدم المساواة، وقُطعت الطريق أمام أيّة محاولة لتكديس الثروات وتركيزها بيد أقليّة. كذلك فقد هُدمت الملكيّة الخاصة والتجارة وأُلغيت النقود. وفي الوقت عينه، يملك كل فرد كل شيء ولا يملك شيئاً. وقد حلّ مكان الملكيّة نظام توزيع عادل للثروات يستجيب لحاجات السكان، دون أن يقودهم النظام الجديد الى الكسل (oisivité). فالمبدأ المطبّق ينصّ على أن "كل فرد يعمل من أجل المجتمع كلّه". وفي هذا تفوق للجماعة على الفرد وتغييب لدوره ومكانته، كما تعرفها الليبراليّة. ويمكن لسكان "الأوتوبيا" الإنشغال بالقراءة لتوعية عقولهم...

وعلى المستوى المؤسساتي، فإن القوانين محدودة، والأمير لا يقيّد الحريات، ويقتصر دوره على حلّ الخلافات. وعلى مستوى الحياة السياسيّة، فهي تقوم على التسامح والإحترام المتبادل، وهي منظمّة من خلال المواطنة. وعلى المستوى القضائي، فالقضاة منتخبون، والملك معيّن لمدى الحياة. ولا يُنحّى إلاّ في حال ممارسته للظلم. أمّا الكهنة فهم مسؤولون عن الحياة الروحيّة، ومختارون أيضاً من قبل الشعب. ولا توجد ديانة رسميّة في جزيرة "أوتوبيا"، بل هناك تعايش سلمي بين مختلف الديانات التي تعترف مجتمعةً بكائن أعلى (Suprême) هو "المِطرى" (Mithra).

والحياة الإجتماعيّة على الجزيرة موضوعة أيضاً في إطار المساواة. ويحقّ لكل فرد الترقّي الإجتماعي، بحسب معرفته دون موانع. ولا يحقّ لأي فرد التمتّع بامتيازات. ولكن هناك طبقة أرستقراطيّة "عن استحقاق" مؤلّفة من المتعلمين الذين درسوا العلوم الإنسانيّة والعلوم التجريبيّة. وهذه طبقة منفتحة على الكل، وتخضع للرقابة، وتقدّم الحكم الصائب لحكومة الجزيرة.

وعلى الرغم من أن "توماس مور" قد استلهم من القيم الدينيّة، إلاّ أن مؤلّفه جاء خالياً من أي علاقة بالأناجيل. لقد قدّم رؤيا عن مجتمع مثالي، وبشّر بقيم إنسانيّة كبرى كالسلام والتسامح. ويمكن القول، أن مقاربة "توماس مور" للمجتمع ونظام عمله شكّلا الأسس الفلسفيّة التي قامت عليها النظريّة الشيوعيّة والإشتراكيّة والفوضويّة.

ثانياً: هنري دو سانت سيمون : (Henri de Saint-Simon 1760 – 1825):

يُعتبر هنري دو سانت سيمون (Henri de Saint- Simon) وأوغست كونت (August Comte) مؤسسي مبادىء الإشتراكيّة الحديثة. إذ شكّل الإنتاج الصناعي والبحث عن الحقيقة الإهتمام الفكري الرئيسي لكل منهما. وفي إطار معالجتنا سنتوّسع أكثر بأفكار (Saint Simon) الذي بحث في مسائل الصناعة وتداعياتها على المجتمع والمقاربة الإيديولوجيّة لهذا التطوّر. وهي مسألة في صلب بحثنا، أمّا أوغست كونت، فقد اتجه أكثر نحو البحث العلمي، وسعى لإرساء قواعد علميّة وموضوعيّة، والتشديد على الإستنتاج، وتطبيق هذه المقاربة على العلوم الإنسانيّة والإجتماعيّة. فهو يُعتبر من مؤسسي علم الإجتماع و"واضعي الطريقة العلميّة لشرح الوقائع من خلال الوقائع نفسها"[٤].

[4] ".. Il a proposé la méthode scientifique de l'interprétation des faits par les faites eux-mêmes ", Chabot, p. 129.

ينتمي سانت سيمون الى عائلة فرنسيّة نبيلة درس في مدرسة (polytechnique)، وأمضى فترة في الولايات المتحدة الأميركيّة. وشارك في القتال الى جانب الثوار إبان استقلال البلاد. وقد زوّدته تجربته هذه، بحبّ المعرفة عامةً وتمجيد العلوم الطبيعيّة خاصةً. ويتناول هذا التمجيد في الوقت عينه العلوم كمنطلق نظري وكوسيلة عمليّة للمعرفة على اختلافها، كنشاط الإنسان مثلاً الذي اعتبره معرفة كونيّة موجّهة بالبراهين العلميّة والتجارب للسيطرة على الطبيعة من خلال العلوم والتقنيات (شقّ القنوات المائيّة مثلاً).

درس (Saint Simon) ثلاثة مواضيع أساسيّة: الإنتاجيّة والديانة والتطوّر. ولإبراز أهميّة الإنتاج والإقتصاد وتبوئه المركز الأول بالنسبة لبقيّة العلوم، لجأ الباحث الى أسلوب التماثل مع الحيوانات، متخذاً من خليّة النحل مثالاً لشرح أهميّة الصناعة. وقد قسّم المجتمع الى طبقتين: الطبقة الأولى، وتشبه العاملات في خليّة النحل، وهي "تقوم بعمل منتج ومفيد للمجتمع. وهذه الطبقة هي الطبقة الصناعية المكوّنة من الفلاحين والفنّانين والحرفيين والعاملين في المصارف... أي كل الطبقة الإنتاجيّة التي تؤلّف معظم أو أكثريّة الأمّة. والطبقة الثانية، وتشبه الذكور في الخليّة، "وهي الطبقة المكوّنة من النبلاء ومالكي الأراضي غير المستغلّة والمشرّعين والقضاة وقيادة الجيش والأكليروس وهذه الطبقة هي طبقة غير المنتجين". من هنا خرج المثل الفرنسي الشهير"إذا مات غير المنتجين القابضين على السلطة فجأة، ترتدي فرنسا ثوب الحداد ولكنها تستمرّ بالحياة. أمّا إذا مات كل أبناء الطبقة المنتجة فإن مصير فرنسا هو الخراب، إذ ينهار المجتمع".

والسياسة، في نظر الفيلسوف، تتماثل مع الإقتصاد وتصبح علم الإنتاج. وسيسعى الحكّام الى منع تعكير الأعمال المفيدة. فهم لا يقودون الرجال ولكنهم يقاتلون من أجل المحافظة على بعض السلطة. إذ تتجمّع الكفاءات والسلطة حول القطاع الصناعي (الجديد الزمني) والعلوم (الجديد الروحي). وهاتان الكفاءتان (Capacité) أو هاتان القدرتان تخضعان لحكم الناس العقلاني.

أما النسبة للدين، فقد اعتبر الفيلسوف، أن كل المسائل تتلخّص "بربط الأخلاق بالإنتاج، كما نربطها بالسياسة"[٥]. فالدين ليس سوى منظمّة اجتماعيّة منتجة تميل الى مساعدة الأغنياء على تحسين الوجود الأخلاقي والمادي للأكثر فقراً[٦]، لذلك يجب تطوير الدين وجعله ديناً "علمياً تطبيقيّاً"، ودين العمل المفيد والمنتج.

أمّا التاريخ بالنسبة إلى Saint Simon فقد شرح بإسهاب موقفه منه في كتابه الشهير "إعادة تنظيم المجتمع الأوروبي"[٧]، حيث اعتبر أن للتاريخ معنًى تقدمياً. ويعبّر عن فكرته كاتباً : "إن

[5] Chabot, p. 127.
[6] Ibid, pp. 127 – 128.
[7] La réorganisation de la société européenne 1814.

العصر الذهبي للإنسان ليس قطّ خلفنا، بل هو أمامنا. وهو موجود في تحسين النظام الإجتماعي وجعله كاملاً: آباؤنا لم يروه قطّ، وأولادنا قد يصلون إليه يوماً ما، لذلك علينا نحن أن نرسم الطريق"[٨]. ويعتقد الكاتب أن التاريخ ليس سوى مرحلتين متعاقبتين: المرحلة العضويّة، ومرحلة النقد. ففي المرحلة العضويّة تسود القيم الأساسيّة والإيمان الذي يلتفّ حوله المجتمع ويؤمن به كل الناس كحال الديانة الكاثوليكيّة في القرون الوسطى، ومرحلة النقد، وهي تلك التي تتميّز بالتحلّل الفكري والفوضى الإجتماعيّة، كما كانت حال المرحلة التي عاش فيها لوثر. وهذه المراحل هي ضروريّة لتحضير المرحلة الأخيرة، أي مرحلة سيادة فكر أتباع سانت سيمون التي نظّمت المجتمع بما يتناسب مع التطوّر. وفي هذه الحال يتطوّر المجتمع بطريقة منتظمة.

إذاً، بالنسبة لسانت سيمون، إن نظريته هي التي ستسود المجتمع وتسيّره وفقاً لقوانين الطبيعة ومنطق جدلي هيغلي، تأتي فيه النتيجة كخلاصة لسبب واضح. وسيطبع منطق سانت سيمون لمقاربة المجتمع الفكر الإشتراكي والشيوعي وسيشكّل سماتهما البارزة.

ثالثاً: أيتيان كابيه وشيوعيته الإكاريّة (١٨٥٦ . ١٧٨٨) Etienne Cabet

أتيان كابيه هو مشرّع فرنسي ومحام عاش خلال الثورة الفرنسيّة وأصبح قاضياً عام (١٨٣٠) وإنتخب نائباً عام (١٨٣١) ونفي الى بريطانيا بسبب أفكاره المتطرّفة. تأثّر بكتابات "توماس مور" وكتب خلال نفيه في لندن كتابه الشهير "رحلة الى إيكاري" (١٨٤٠). وتصّور في هذا الكتاب، حياة وطرق عيش المجتمع الإيكاري الذي صمّمه كنظام قائم على شيوعيّة الممتلكات والمساواة. تدير السلطة في هذا النظام كل الوظائف والمهام، وترعاها بدءاً من الإنتاج وصولاً الى التفاصيل المتعلّقة بالأماكن التي يعيش فيها الأفراد وعناوين مراكز عملهم. ومن القيم المفروضة على المجتمع الإيكاري والتي تميّزه عن غيره: منع تعدّد الزوجات، والسيطرة على الغرائز، وتنظيم الشهوات من قبل السلطات العامة.

وقد حاول كابيه (Cabet)، خلال حياته، محاولة إنشاء مجتمع وتنظيمه ، قرب مقاطعة نيو– أورليانز في الولايات المتحدة، مماثل لإيكاري لا سيما لجهة تنظيمه وإدارته. ولكن المشروع فشل بسبب عجز الناس عن تحمّل تسلّط المؤسس.

[8] Ibid, p. 128.

هذا وقد كتب كابيه كتاباً ثانياً تناول فيه الديانة المسيحية، وأسماه "المسيحيّة الحقيقيّة". وتضمّن المؤلف مزيجاً من المسيحيّة والمساواة الإجتماعيّة. واعتبر كابيه في كتابه هذا أن المسيحيّة دخلت مرحلة الغروب والإنكفاء، وهي آيلة الى الزوال. والنظام الأفضل للحلول مكان هذه الديانة هو الديموقراطيّة المستوحاة من أفكار الثورة الفرنسيّة عام (١٧٨٩).. ويعتبر كابيه أن الجماعة (communauté) والشيوعيّة (commmunisme) هما تسميتان للدلالة على شيء واحد وهو تحقيق الديموقراطيّة التامة والكاملة. فالديموقراطيّة تقود الى الشيوعيّة، وخارجها تصبح الديموقراطيّة الكاملة مستحيلة. أمّا بالنسبة لمستقبل المسيحيّة الحقيقيّة، فإنها ستصبح اشتراكيّة.

ب . الإشتراكيـّة وتعدد التيارات الفكريـة:

إنطلق الفكر الإشتراكي منذ الإغريق مع كتابات أفلاطون الذي قارب حياة الناس في المدينة الفاضلة مقاربة مثاليّة. وقد استوحى منه مجموعة من الكتّاب في عصر النهضة كما أشرنا أعلاه، إذ سعوا الى إسقاط عالم خالٍ من التمييز على الواقع. والافت في الأمر سعي الفلاسفة الذين اعتنقوا الأفكار الإشتراكيّة الى وضعها موضع التطبيق من خلال إقتراح سلسلة من الآليات والمكنيزيمات. وقد انعكس هذا الأمر على مقاربتهم بشكل عام التي تجلّت بشكل تيارات فكريّة أبرزها:

. الفوضوية Les anarchistes
. الشيوعيّة Les communistes
. الماركسيّة Les marxistes

ويعتبر " جان– لوك شابو " "أن ما يجمع التيارات الإشتراكيّة هو أكثر ممّا يفرّقها. فمنذ قرنين، أي منذ نشأتها، وكتابات الفلاسفة الإشتراكيين تعكس التشابه أكثر مما تعكس الإنقسام، فهم يعتمدون في كتاباتهم وخطاباتهم بشكل أساسي على مجموعة من المفردات وعلى لغة تؤكّد وحدة المصدر وآحاديّة المقاربة الفلسفيّة. فالإشتراكيّة على تنوّع روافدها تتمتّع بمفهوم موحّد للإنسان وللتاريخ"[9]. فالمجتمع والإنسان هما الجذور التي انطلقت منها الإشتراكيّة، وسارت باتّجاه الماديّة المعلنة أو غير المعلنة. وتشكّل عناصر المقاربة المؤشّرات الحقيقيّة للماديّة الإشتراكيّة ولأوجه التشابه بين فروعها.

[9] Jean- Luc Chabot, Histoire de la pensée politique, p. 121.

ويعتقد "شابو" (Jean – Luc Chabot) أن مصادر الإشتراكيّة هي نفسها مصادر الليبراليّة، فليس من باب الصدفة أن يجمع ماركس بين الإلحاد الفلسفي للهيغليّة اليساريّة ومسلمات الإقتصاد السياسي الإنكليزي. فقارب الإنسان مقاربة اقتصادية: "إن مفهوم الإنسان هو مفهوم الإنسان الاقتصادي، الانسان المنتج والمستهلك"[10].

La conception de l'homme, c'est celle de l'homo oeccnomicus de l'homo faber et consumens.

وقد سيطر هذا المفهوم على كتابات ماركس عامة، وعلى كتاباته حول الإيديولوجيّة الليبراليّة خاصة، حيث تجلّى في شكل واصرار وصل لدرجة الهوس. كما لجأ ماركس الى كل الوسائل والحجج الفكريّة لدعم وجهة نظره. ويتلخّص هذا الرأي بموقفه من الإقتصاد، والأهميّة الخاصة التي يمنحها للمنتدى الإقتصادي، مستعرضاً عناصر الإنتاج وامتلاك الثروات والتمتّع بها وتوزيعها. ونستخلص من هذا العرض أن هناك تشابهاً في مقاربة كل من الإشتراكيّة والليبراليّة لجهة تناولهما الإنسان والمجتمع. فكما شكّلت الفرديّة منفردة (بمعزل عن الحريّة) جوهر الليبراليّة، فإن الإنتاجية هي في أساس المقاربة الإشتراكيّة وليس الحالة البيروليتاريّة المرتبطة بنموذج الإنتاج. "فالإجتماعي هو أكسسوار الإقتصاد، كما أن الحريّة هي رمز الفرد"[11]. ويفسّر ماركس موقفه هذا بأن الإنتاجيّة أصبحت مشتركة في عصر الصناعة، وهي تتجلّى في تجمّع موظفي المؤسسات الإقتصاديّة، وطبقة العمّال، وحتى في الإنسانيّة بأكملها. فابتداءً من عصر الصناعة تحوّل الإنسان الى رقم يمثّل جزءاً من عمليّة إنتاجيّة طويلة تؤمّن حاجاته.

وتنطلق الإشتراكيّة في مقاربتها للانسان من جعل الجنس البشري هدفاً سامياً بدلاً من فرادة الإنسان. وإذا كانت حريّة الفرد هي هدف الليبراليّة، فإن تحرير الإنسانيّة هو واجب على الإشتراكيّة، وهو آليّة تنفيذ وصراع وثمن. من هنا تعمل "الفوضى التحريريّة" على تحقيق هذا الهدف بغضّ النظر عن المستفيد سواء أكان الفرد أم المجموعة. وكما تبرّر الليبراليّة الملكيّة الفرديّة المطلقة هكذا تدافع الإشتراكيّة عن شيوع الملكيّة.

أمّا بالنسبة إلى مفهوم التاريخ، فإن الإشتراكيين يعتنقون، على اختلاف إنتماءاتهم، ماركسيين كانوا أو شيوعيين أو فوضويين (anarchisme) مفهوماً واحداً. فهم يعتبرون أن التاريخ تأثّر بثورتين: الثورة الفرنسيّة والثورة الصناعيّة، وهو يستعد للثورة الثالثة التي ستتخطّى الدين.

ويعتبر الإشتراكيون أن للثورة الفرنسيّة حسناتها وسيئاتها. ومن حسناتها أنها حقّقت إنجازاً إيديولوجياً غير قابل للنقاش يتلّخص بالعقلانيّة والتقدميّة. ويحيّي الإشتراكيون الثورة الفرنسيّة

[10] Chabot, Ibid, p. 122
[11] Chabot, Ibid, p. 122

باعتبارها منعطفاً أساسياً ومهمّاً في تاريخ البشريّة. أمّا بالنسبة إلى الثورة الصناعيّة والتقنيّة، فقد أوجدت هذه الثورة رؤى جديدة وضاعفت إنتاج الثروة الماديّة، فأكّدت في المجال الإقتصادي وثبتت ما طالبت به الثورة الفرنسيّة نظرياً وقانونياً في المجال السياسي. بمعنى آخر حققت الثورة الصناعيّة الاهداف السياسيّة للثورة الفرنسيّة. ومن سيئاتها أنها تسبّبت (أي الثورة الصناعيّة) بأضرار جسيمة في المجتمع، وانقلاب اجتماعي تجلّى في خلق طبقة عمّال المصانع. وتُعتبر هذه الطبقة السمة البارزة للنظام الليبرالي الرأسمالي. هذا التحوّل الإجتماعي يستدعي تدخلاً من قبل الإشتراكيّة لإعادة تنظيم المجتمع وتصحيح الخلل الذي أحدثته الرأسماليّة عبر إحداث ثورة في المجتمع.

هذا بالنسبة للثورة الصناعيّة، أمّا بالنسبة للدين فإن الوضع لا يختلف إذ يرى منظّرو الإشتراكيّة أنّ على المسيحيّة أن تتحوّل أو أن تختفي، وأن يحلّ مكانها مجموعة من المبادىء المُفترض اعتناقها. فالإشتراكيّة تطرح نفسها كمرحلة ما بعد المسيحيّة في إطار من التطوّر التاريخي.

وفي محاولة لاكتساب شرعيّة دينيّة والحلول مكان المسيحيّة، استعارت الإشتراكيّة بعض مفاهيم المسيحيّة واستخدمتها لتفسير نظرتها الى العالم. فبالنسبة لها (أي الإشتراكيّة) إن خلاص البشريّة لا يأتي عن طريق المسيح المخلّص بل عن طريق العمّال الذين يساهمون، من خلال لعبهم دورهم التاريخي، في تغيير المجتمع وتطويره. إنهم النموذج الأنجح لإحداث هذا التطوّر.

وفي الخلاصة، يمكننا القول إن تعدّد المقاربات الاشتراكية أخضع هذه النظرية إلى ضغوطات متناقضة نابعة من اختلاف تحديد الأهداف. فاصبحت الإشتراكية تتأرجح بين هدفين: تنظيم المجتمع وتحرير الانسان. فبالنسبة لبعض المفكرين الاشتراكيين، إن تحرير الإنسان هو نتيجة ضغوط العقلانية المنظّمة. وهي ضغوط تصبّ في مصلحة الإنسان ومنفعته. أما بالنسبة للاخرين، وتحديداً أتباع النظرية الفوضوية، فإن النظام الجديد سيكون ثمرة العفوية، أي إن التحرر سيؤدي إلى قيام نظام جديد بشكل عفوي وبدون ضغوط.

٢ . <u>تعريف المصطلحات:</u>

أ . تعريف مصطلح إشتراكي (Socialiste = socialism)

أتيمولوجيا يعود أصل مصطلح اشتراكي الى اللاتينيّة (Socialis)، أي إجتماعي (Sociable) وهذه الكلمة مشتقّة من كلمة " Socius " أي: شريك (associé) ورفيق، من هنا مصطلح إشتراكي. والإشتراكيّة هي نظريّة سياسيّة واقتصاديّة تهدف الى إصلاح نظام الملكيّة الخاصة ووسائل الإنتاج والتبادل التجاري، عبر وضع هذه الوسائل بين أيدي المجموعة (collectivité) وليس بين يدي الفرد. بمعنى آخر تدعو الإشتراكية الى تدمير الملكيّة الفرديّة التي قامت عليها الرأسماليّة.

وتتمثّل القيم الأساسيّة للإشتراكيّة بغياب الطبقيّة، وتحقيق المساواة في الفرص، والعدالة الإجتماعيّة، والتوزيع العادل لمصادر الثروات، والتضامن (solidarité) الإجتماعي، ومحاربة الفرديّة وتغليب المصلحة العامة على المصلحة الشخصيّة.
وفي النظريّة السياسيّة الماركسيّة، تُعتبر الإشتراكيّة المرحلة الإنتقاليّة بين تدمير الرأسماليّة ومجيء الشيوعيّة التي تترافق مع زوال الدولة. وخلال المرحلة الانتقالية تُمارس على المجتمع ديكتاتوريّة البروليتاريا بواسطة الدولة.

ب . <u>تعريف مصطلح فوضويّة: (anarchisme):</u>

أتيمولوجياً يعود أصل مصطلح "فوضويّة" إلى اللاتينيّة، وهو قسمان، " an " (sans) أي بدون و (archè) (pouvoir, autorité) سلطة بمعنى " بدون سلطة ". وقد اتخذت لها شعاراً "بدون الله، بدون سيّد".

والفوضويّة هي حركة فلسفيّة وسياسيّة معادية لأيّة سلطة ولأيّة هرميّة. تنتقد الفوضويّة نقداً جذرياً كل المؤسسات والأنظمة التي قام عليها المجتمع الحديث كالرأسماليّة والمؤسسة العسكريّة، والشرطة، والأسرة البطريركيّة، والدين... وتعتبرها مؤسسات قهرية. كما تنتقد هذه النظرية الدولة وتدعو الى زوالها. وينطبق هذا النقد أيضاً على جميع أشكال الهيمنة أخلاقيّة كانت أم إجتماعيّة أم إقتصاديّة أم سياسيّة، على سبيل المثال، الإضطهاد والظلم الطبقي، أو التمييز العرقي أو الجنسي الخ... وترغب الفوضويّة في التأسيس لمجتمع قائم على قيم الحريّة، من دون هيمنة يعيش فيه الناس أحراراً، متساوين، متعاونين، حيث تشكّل الحريات الفرديّة فيه أساس التنظيم الإجتماعي والعلاقات الإقتصاديّة والسياسيّة. وتقدّم الحريّة، في الواقع، للفرد الفرصة لتحقيق إمكاناته كاملة، إذ لا يمكنه أن يكون حراً ما لم يكن المجتمع مكوّناً من أحرار.

والفوضويّة ترفض كل العقائد وتسلّط الضوء على الإستقلاليّة والضمير بعيداً من مفاهيم الحق والباطل المعرّفة من قبل "أيّة مؤسسة" أو "تفكير سائد". يجب أن يكون الإنسان حراً في تحديده لنفسه بنفسه والتعبير عن ذاته بالحريّة ذاتها.

ج . تعريف مصطلح الشيوعي (communiste):

أتيمولجيا يعود أصل المصطلح الى اللاتينيّة (Communis) أي المجموعة، ومجتمع (Communauté) وهذه الكلمة مشتقة من كلمة (Cum = avec) أي "مع" و"معاً"، ومن (munus = charge, dette) أعباء، أحمال مشتركة، التزامات متبادلة (charges partagées, obligations mutuelles) كما قد تعني كلمة (munus = emploi, fonction) عمل أو وظيفة، وتعني في كلتا الحالتين التزاماً. وتُعتبر الشيوعيّة شكلاً من أشكال التنظيم الإجتماعي القائم على إلغاء الملكيّة الخاصة لوسائل الإنتاج والتبادل لصالح الملكيّة الجماعيّة. والإنتقال من النظام الرأسمالي الى المجتمع الشيوعي الخالي من الدولة والطبقات يتطلّب وجود فترة انتقاليّة تتولاها دكتاتوريّة البروليتاريا.

من الناحية السياسية، تُعتبر الشيوعيّة أحد تيارات الإشتراكيّة الفكرية، وقد استلهمت معظم مبادئها من النظريات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي عرضها كارل ماركس وفريدريك أنجلز في بيان الحزب الشيوعي (manifeste). وفي هذا البيان عرض ماركس وانجلز تصورهما لنظام اقتصادي واجتماعي طرحاه كبديل من النظام الرأسمالي، حيث وصّفاه "كجمعيّة أو شركة للتنمية تشترط تطوّر الفرد الحرّ لتحقيق تطوّر الجميع."

وفي منابعها ترتكز الشيوعية على المثاليات التي تعتبر أن حياة الانسان خارج المجموعة أمر لا يمكن قبوله. وفكرة انتماء الانسان إلى مجموعة قديمة جداً، حتى أنه يطلق أحياناً، على تنظيم المجتمعات البشريّة الأولى تسمية الشيوعيّة البدائيّة. وقد قارب عدّة فلاسفة المجتمع كمجموعة متعاضدة ومتعاونة مثال أفلاطون، وبعض المسيحيين الأوائل. ويعتبر لينين المؤسس الحقيقي للشيوعيّة الحديثة، وقد رفع الثورة الموجودة في الشيوعيّة وديكتاتوريّة البروليتاريا الى مرتبة عالية وجعلها في المقدمة.

د . تعريف مصطلح الماركسية (marxisme):

أمّا الماركسيّة (Marxisme)، فقد اكتسبت إيتيمولوجياً تسميتها تيمّناً بمطلقها كارل ماركس الفيلسوف والخبير الإقتصادي. وكارل ماركس هو إلماني المولد والجنسيّة عاش بين أعوام (١٨٨٣ . ١٨١٩). وأمضى حياته بين إلمانيا وبريطانيا. وتعتبر الماركسيّة تياراً فلسفياً وسياسي واقتصادياً وإجتماعياً في الوقت عينه، يُعبّر عن أفكار ماركس وإنجلز وآرائهما في القضايا الإجتماعيّة والسياسيّة والإقتصاديّة.

فلسفياً، إن الماركسيّة مستوحاة من الماديّة الفرنسيّة التي سادت في القرن الثامن عشر، نشأت كردّ على الفلسفات المثاليّة. كما إستوحت من الفلسفة الإلمانيّة الكلاسيكيّة وخصوصاً أفكار فريدريش هيغل، واستلهمت من الإقتصاد السياسي الإنكليزي، ومن الإشتراكيّة الاوتوبية أو الطوباويّة. وتستند المركسيّة أيضاً على المفهوم المادي للتاريخ وأسلوبه الجدلي، اللذين يشكلان معاً الجدليّة الماديّة. وإنّ تاريخ المجتمعات البشريّة، بالنسبة لماركس وأنجلز، "ليس سوى تاريخ صراع الطبقات". وقد حددا عبر هذا التاريخ ثلاثة أنساق من الإنتاج: العبوديّة والإقطاع والرأسماليّة.

ويعتبر ماركس أن تطوّر وسائل الإنتاج بدّل الشروط الإقتصاديّة، وأتى الى السلطة بطبقة اجتماعيّة جديدة، غيّرت بدورها وسائل الإنتاج... وهكذا تمكّنت البرجوازيّة من الإطاحة بالنظام الإقطاعي وأنتجت البروليتاريا. ويمسك البرجوازيون الرأسماليون بوسائل الإنتاج، ويسيطرون على البرولوليتاريا، ويستغلونها ويقمعونها. وحده النضال السياسي للبروليتاريا قادر على الإطاحة بالبرجوازيّة والرأسماليّة وقادر أيضاً على إقامة المجتمع الإشتراكي المستقبلي وتأسيس الشيوعيّة.

ومن الناحية الإقتصاديّة، تُعتبر الماركسيّة تحليلاً للرأسماليّة. ويعتبر ماركس الرأسماليّة نظاماً هدفه الأوحد تكديس الرأسمال، من خلال الأرباح والمكاسب. وتُمثّل هذه الأرباح حصة العمل غير المدفوع من عمل البروليتاريا التي تتقاضى فقط ما يمكّنها من تجديد نشاطها لمتابعة الإنتاج.

وفي الخلاصة، يرى ماركس أن الرأسماليّة تقود الى مجموعة تناقضات تؤدّي الى استغلال الإنسان من قبل أخيه الإنسان، وهي:

. تركيز الثروات في يد طبقة اجتماعيّة واحدة، وغرق الأخرى في البؤس.
. إستمرار النمو في الربحيّة نتيجة التقدّم التقني.
. إكتظاظ العمّال الذي يتسبّب بالبطالة.

. زيادة في الإنتاج دون أن توازيها زيادة في الإستهلاك، ما يؤدّي الى ظهور أزمات دوريّة بسبب الكساد ونتيجة لزيادة الإنتاج. ولحلّ هذه التناقضات، يعتقد ماركس وإنجلز أن الإستيلاء على السلطة من قبل البروليتاريا هو أمر ضروري. ويجب أن تؤدّي هذه الثورة الى مجتمع قائم على مبادىء جديدة تتمثّل بالشيوعيّة. والشيوعيّة هي مجتمع لا وجود فيه للدولة أو للطبقيّة، حيث تقضي هذه الثورة على استغلال الإنسان لأخيه الإنسان وتجعله سيّد تاريخه.

ويتمّ التحوّل بإتّجاه الشيوعيّة على مرحلتين: الأولى قصيرة، تقوم على دكتاتوريّة البروليتاريا لضمان انتصار الثورة، والثانية طويلة تتسم بتطوّر الإشتراكيّة ومشاركة وسائل الإنتاج والتبادل.

ولتحضير الثورة، على البروليتاريا أن تتنظّم على كل المستويات سيّما على المستويين السياسي والنقابي. وهكذا تصبح الأمميّة العمّالية جواباً على تدويل هيكليّة التبادل والإنتاج والقمع الرأسمالي. وتُعتبر الماركسيّة– اللينيّة امتداداً لنظريات ماركس وأنجلز في القرن العشرين. ولكن لينين ركّز في نظريته على النضال والثورة وديكتاتوريّة البروليتاريا قبل تحوّل المجتمع نحو الشيوعيّة.

٣ . <u>الأسس الفلسفيّة للنظريّة الإشتراكيّة:</u>

يعتبر المفكرون الإشتراكيون، كما المفكرون الليبراليون، أن الإنسان هو في أساس كل طرح نظري. ولكن تختلف مقاربة كل منهم الى موقع الإنسان ودوره ومكانته في المجتمع وعلاقته مع الكون سواءً أكانت الطبيعة أم المجتمع أم الآخر. وتنتظم الفلسفة الإشتراكيّة حول أربع مبادىء رئيسيّة:

. الأحتجاج على السلطة القائمة.
. إرادة بناء عدالة حقيقيّة في العلاقات الإجتماعيّة.
. تفوّق الجماعة على الفرد.
. حثّ السلطة السياسيّة على لعب دور ناشط في المجالين الإقتصادي والإجتماعي.

ترتكز الإشتراكيّة على معطى أساسي يشكّل المنطلق الفلسفي لكل النظريّة. وهذا المعطى ليس سوى الإشكاليّة السياسيّة التي تسعى الإشتراكيّة للردّ عليها، وهي إشكاليّة أرضيّة بكاملها. فالإنسان بحسب هذه النظريّة، لديه حياة واحدة هي الحياة الأرضيّة. وبالنسبة للفلاسفة الإشتراكيين، لا يمكن للحياة الروحيّة أن تؤثّر على الحلول السياسيّة إن لجهة تغييرها أو لجهة تحديد معانيها. وتعتبر

الإشتراكيّة القدر وضعاً اجتماعياً لا أكثر، ما يعني انتفاء الاختلاف بين أنصار الإشتراكيّة وارتكازهم مجتمعين على المبادىء الفلسفيّة نفسها.

٤ . المظاهر:

تتجلّى الفلسفة الإشتراكيّة في كلّ أوجه الحياة. فهي محاولة إسقاط صورة مثاليّة للمجتمع على الواقع والتحولات الواجب اعتمادها ليتلاءم هذا الواقع مع التصوّر المثالي. وكان يمكن للإشتراكيّة أن تبقى في إطار المثاليات والتصورات، لولا انضمام كارل ماركس الى الحزب الشيوعي ووضعه، مع صديقه، فريدريك أنجلز الأسس الفلسفيّة للحزب الشيوعي عام ١٨٤٨. وقد صاغا هذه المبادىء السياسيّة الفلسفيّة في شكل إعلان مبادىء هو:

" Le manifeste du parti communiste ".

وقد قدّم ماركس هذا الإعلان بمثابة قاعدة أساسيّة يُستوحى منها لإرساء المجتمع الشيوعي. وقد تضمّن الأفكار والرؤى الإجتماعيّة والسياسيّة والإقتصاديّة الواجب تطبيقها في المجتمع كي يتحوّل من مجتمع رأسمالي الى مجتمع شيوعي. وقد إستوحت معظم التيارات اليساريّة في العالم مبادئها من هذا الإعلان، واستقت كل إجراءاتها السياسيّة والإجتماعيّة والإقتصاديّة من طروحاته. وهكذا تتجلّى الإشتراكيّة بمظاهر اجتماعيّة – سياسيّة واقتصاديّة.

أ . المظهر الإقتصادي:

تنطلق الإشتراكيّة من مبدأ إمتلاك كل المجتمع لوسائل الإنتاج، وفي فكرة العمل المشترك بين كل أبناء المجتمع. ولكل فرد بحسب حاجته.

تدعو الشيوعيّة الى إقامة "مجتمع خالٍ من الطبقات الإجتماعيّة"، وإلى تنظيم المجتمع من دون دولة. ويقوم هذا المجتمع على تدمير الملكيّة الفرديّة ووسائل الإنتاج والتبادل التجاري، وإستبدالها بالملكيّة المشتركة (أي أن يتملّك كل المجتمع وسائل الإنتاج).

ووفقاً لمبدأ " من كل بحسب عمله الى كلٍ بحسب حاجته"، تنظّم العلاقات الإقتصاديّة وفق مبدأ يتعارض مع المبدأ الراسمالي. فالعلاقات الإقتصاديّة تنظّم جماعياً بهدف إشباع حاجات المجتمع وليس وفق مبدأ تبادل البضائع لقاء بدل، إذ ليس من الضروري أن يكون هناك بدل مادي.

فالتبادل قائم على المجانيّة. ولا وجود للتجارة أو المال، ولا لأي نوع من انواع النشاطات التجاريّة (فالإنتاجيّة الشيوعيّة تغطي كل حاجات الفرد). وتهدف الشيوعيّة أيضاً الى تدمير الملكيّة الفرديّة أو أقلّه إلى جعلها محدودة جداً بحيث تخسر " كلمة هبة " كل أهمية لها.

وأمّا بالنسبة لوسائل الإنتاج، كالمعامل والأراضي الزراعيّة ومزارع تربيّة المواشي ووسائل النقل، فهي تشكّل مجتمعةً ملكاً مشتركاً يديره السكان العاملون، ويهدف الى إشباع حاجاتهم. وبهذه الطريقة تنتفي المنافسة والهدر الناتجان عن تمركز وسائل الإنتاج بيد أقليّة.

وعملياً سعت الدول التي إتخذت من الشيوعيّة نظاماً لها إلى تطبيق المبادىء الشيوعيّة في سياستها الإقتصاديّة ولكنها اصطدمت بعقبات كثيرة أبرزها قواعد التجارة العالميّة التي تخضع لقوانين الرأسماليّة ولمبدأ العرض والطلب، ما أدّى الى خلق نظام معقّد أنتج بيروقراطيّة بليدة، ساهمت الى درجة كبيرة في تخلّف هذه الدول، وشكلّت أحد أسباب إنهيار المنظومة الإشتراكيّة.

ب . <u>المظهر الإجتماعي . السياسي للاشتراكية:</u>

من أبرز المبادىء التي قامت عليها الاشتراكية والشيوعيّة، هو إعتناقهما فكرة الجماعة وتفوقها على الفرد كردٍّ على "فرديّة" الفلسفة الليبراليّة. وتنطلق المقاربة الإشتراكيّة من أن المجتمع الإشتراكي والشيوعي هما مجتمعان خاليان من الطبقيّة ولا وجود للدولة فيهما، كلاهما مجتمع لا يمارس فيه القمع خدمة لطبقة معيّنة.

وتقرّ الشيوعيّة بعدم إنتاجيّة كل أفراد المجتمع، فهناك الأولاد والشيوخ العاجزون عن العمل وبالتالي، هم فئات غير منتجة. ولكن بالرغم من ذلك، تعتبر الشيوعيّة أن على كل فرد أن يشغل نفسه بعمل منتج ومفيد يختاره هو. إذاً المبدأ هو الإنشغال بأشياء مفيدة تفادياً للخمول والكسل وما ينتج عنهما من صفات سيّئة. كذلك تطمح الشيوعيّة الى تدمير التقسيم الإجتماعي للعمل دون القضاء على الإنتاجيّة وتوفّر السلع، وإزالة كل قوة قهريّة كالجيش والشرطة، والعمل بشكل عام من دون حكومة. وتعترف الشيوعيّة بوجود بعض المهام والوظائف غير السارة أو أكثر صعوبة من غيرها. كما تعتمد الشيوعية على الديموقراطيّة المباشرة للحدّ من الصراعات بما في ذلك تلك المتعلّقة بالإنتاج.